المبحث الرابع

المناسبة بين الالتفات والسياق اللغوي

الالتفات فن من فنون البلاغة العربية يكاد يكون غير ملتفت إليه في الدراسات البلاغية الحديثة بل إنّ الحديث عنه غائب حتى في بعض المصنفات القديمة كدلائل الإعجاز. وقد يشار عليه تحت اسم غير الالتفات كالخروج عن مقتضى الظاهر أو العدول، أو الانصراف... وقد تناولته بعض كتب النقد القديمة أيضاً كالعمدة لابن رشيق، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني. إنّ للخلفية الدينية دوراً في اهتمام هؤلاء بهذا الفن ذلك أنّه متربط بالقرآن ارتباطاً وثيقاً لوروده فيه بكثرة، ولأجل ذلك كان مبحثاً من مباحث علوم القرآن.

مفهوم الالتفات:

الالتفات لغةً: قال ابن منظور: لفت وجهه عن القوم: صَرَفَهُ والتفت التفاتاً، والتّلفّتُ أكثر منه. وتلفّت إلى الشيء والتفت إليه: صَرَفَ وجهه إليه ولفته عن الشيء يلفته لفتاً: صرفه، ويقال: لفت فلاناً عن رأيه، أي: صرفته، ومنه الالتفات[1] قوله تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[2].

واللّفْتُ: الصّرْفُ؛ يُقال ما لفتك عن فلان أي ما صرفك عنه. وقال الفيومي: التفت بوجههِ يمنة ويَسْرة ولفتهُ لفتاً لفتاً من باب ضَرَبَ، صَرَفَهُ إلى

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة (لفت).

(٢) سورة يونس، الآية: ٧٨.

ذات اليمين أو الشمال ومنه يقال: لفتّهُ عن رأيه لفتاً إذا صرفتهُ عنهُ...[1].

الالتفات اصطلاحاً: عرف البلاغيون الالتفات واختلفوا في تسميته[2]. فمنهم من سماه الاعتراض والرجوع والصرف والانصراف والالتفات، وكذلك أطلقوا عليه شجاعة العربية.

ولعل أول من أطلق عليه تسمية الالتفات هو الأصمعي[3]، وقد أوضحه ابن الأثير بقوله: «وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله. فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام؛ لأنّه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل أو من مستقبل إلى ماضٍ»[4].

وعرّفه ابن المعتز بقوله: «هو انصراف المتكلم من المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك من الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه معنى آخر»[5].

وقد عرّفه العلوي بأنه: «العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول»[6]، وعرّفه السبكي: «الالتفات الانتقال من أحد الأساليب

---

(١) ينظر: المصباح المنير، مادة (لفت).

(٢) ينظر: البديع: ٥٨؛ والصناعتين: ٣٩٢؛ والعمدة: ٤٦/٢؛ والمثل السائر: ٤/٢.

(٣) ينظر: حلية المحاضرة: ١٥٧/١؛ والصناعتين: ٣٩٢؛ والعمدة: ٤٦/٢.

(٤) المثل السائر: ٤/٢.

(٥) البديع: ١٥.

(٦) الطراز: ٢٦٥.

الثلاثة السابقة، وهي التكلم والخطاب والغيبة إلى غيره»[1]. وأمّا الرازي فقد نعته بالعدول وقال: قيل: إنّه العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو العكس.

وتحدث السيوطي عن الالتفات فقال: هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخره أعني من التكلم إلى الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير بالأول هذا هو المشهور.

ويتضح أنّ البلاغيين قد اعتمدوا في تعاريفهم للالتفات على التعريف اللغوي، لأنّ المادة اللغوية لفت الدَّالة على معنى الانتقال والانصراف والتحويل من حال إلى حال، كنقل الوجه من اليمين إلى الشمال، ومن الشمال إلى اليمين، هي نفسها الدَّالة على الانتقال من أسلوب إلى أسلوب في التعاريف الاصطلاحية للالتفات[2].

وقد وضع السكاكي الالتفات ضمن علم المعاني، فقال فيه: «واعلم أنّ هذا النوع، أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة، لا يختص المسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كلّ واحد منهما على الآخرة ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب على أسلوب، أدخل في القبول عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه، وأملاً باستدرار إصغائه، وهم أحرياء بذلك»[3].

شرطا الالتفات:

اشترط البلاغيون في الالتفات شرطين هما:

---

(١) عروس الأفراح: ٤٩٢/١.

(٢) ينظر: البلاغة الميسرة: ٥٠٧.

(٣) مفتاح العلوم: ١٩٩.

الأول: أن يكون الضمير الملتفت إليه عائداً في نفس الأمر إلى الملتفت عنه.

والثاني: أن يكون الالتفات في جملتين مستقلتين، وهو الشرط الذي رفضه الإمام الزركشي رحمه الله بقوله: وفي هذا الشرط نظر، فقد وقع في القرآن مواضع، الالتفات فيها وقع في كلام واحد؛ وإن لم يكن بين جزأي الجملة كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

صور الالتفات:

يقول الإمام الزركشي: واعلم أنّ للتكلم والخطاب والغيبة مقامات والمشهور أنّ الالتفات هو الانتقال من أحدها إلى الآخر بعد التعبير بالأول.

ولأهمية هذا الأسلوب في إعطاء النص إيحائية عالية ودلالة قوية نجده كثيراً ما يتكرر في آيات ونصوص القرآن الكريم ممّا جعل أكثر المفسرين يهتمون به اهتماماً ملحوظاً، ومنهم السمين الحلبي الذي كان مسلماً لكلّ آية تحمل التفاتاً فيذكره، وكذلك نجد الشيخ رشيد الخطيب أيضاً قد اهتم بهذا الأسلوب في تفسيره، وكان حريص على ذكر الأغراض البلاغية التي يخرج إليها هذا الأسلوب. ولذا يجب أن نتعرف على أشكال الالتفات المتعلقة بالضمائر في النص القرآني ومناسبتها للسياق اللغوي، إذ لا اختلاف في كونها التفاتاً وتتمثل في الأشكال الآتية:

أ – الالتفات من ضمير التكلم إلى الغيبة:

من شواهد هذا النوع من أنواع الالتفات في القرآن الكريم ما نراه في

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٣.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾[1]، قال الشيخ رشيد: «ثم غيّر الأسلوب من التكلّم إلى الغيبة مبالغة في التعظيم»[2].

وقوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[3]، قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ فيه التفات من المتكلم إلى الغيبة، إذ لو جاء على نسق الكلام، لقيل: إنّهم فتية آمنوا بنا»[4].

وقال ابن حبان أيضاً: «وفيه التفات إلى التكلم؛ لزيادة الاعتناء بشأنهم»[5]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾[6]. فنوّع الأسلوب بالانتقال من ضمير المتكلم المعظم في ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا﴾ إلى ضمير الغائب الدال عليه لفظ الجلالة في ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ والأصل: لنغفر لك. قال الرازي: «ولم يقل إنا فتحنا لنغفر لك تعظيماً لأمر الفتح، وذلك لأنّ المغفرة، وإن كانت عظيمة، لكنها عامة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[7] ولئن قلنا بأنّ المراد من المغفرة في حق النبي ﷺ العصمة،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.
(٢) أولى ما قيل: ٩٦/٦.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٣.
(٤) الدر المصون: ٤٣٨/٤.
(٥) البحر المحيط: ٢٠٦/٤.
(٦) سورة الفتح، الآيات: ١-٣.
(٧) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

فذلك لم يختص بنبينا، بل غيره من الرسل كان معصوماً، وإتمام النعمة كذلك، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وكذلك الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[2] فعمم، وكذلك النصر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾[3] وأمّا الفتح فلم يكن لأحد غير النبي ﷺ، فعظمه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[5].

قال السمين الحلبي: «وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ استثناء مفرغ، لأنّ ما قبله مفتقرٌ إليه. وفيه التفاتٌ من التكلم إلى الغيبة، إذ لو جرى الكلام على نسقه لقيل: لا تعبدون إلاّ إيّانا، لقوله: ﴿أَخَذْنَا﴾. وفي هذا الالتفات من الدلالة على عظم هذا الاسم. والتفرّد به ما ليس في المضمر»[6]. وهذا رأي أبي حيان[7].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٧.

(٣) سورة الصافات، الآيتين: ١٧١-١٧٢.

(٤) مفاتيح الغيب: ٦٩/٢٨.

(٥) سورة البقرة، من الآية: ٨٣.

(٦) الدر المصون: ٢٧٦/١.

(٧) ينظر: البحر المحيط: ٤٥١/١؛ واللباب في علوم الكتاب: ٢٢٩/٢.

ب- الالتفات من ضمير الغيبة إلى التكلم:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] جاء الأسلوب القرآني بهذه الآية بفعل القول مسنداً إلى لفظ الرب الذي يدل عليه ضمير الغائب، ثم عدل عن ذلك بقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾[2]، فأسند فعل القول هذا إلى ضمير المتكلم المعظم. وإنّما يرجع هذا الالتفات وعلاقته بالسياق -على حد قول أبي حيان- إلى «أنّه صدر منه الأمر للملائكة بالسجود ووجب عليهم الامتثال، فناسب أن يكون الأمر في غاية من التعظيم؛ لأنّه متى كان كذلك كان أدعى لامتثال المأمور فعل ما أمر به من غير بطء ولا تأوّل، لشغل خاطره بورود ما مصدر من المعظم»[3].

وكذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[4] فقد انتقل سبحانه من الغيبة في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ دون (بارك حوله) وهو الأصل.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٣) البحر المحيط: ١/٣٠٢.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١.

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[1]. قال السمين الحلبي: «وفي قوله: ﴿نَزَّلۡنَا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم؛ لأنّ قبله: (اعبدوا ربكم) فلو جاء الكلام عليه لقيل: ممّا نزّل على عبده، ولكنه التفت للتفخيم»[2].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾[3]، قال رشيد: «والالتفات من الغيبة إلى التكلم، لإظهار التحقق، أو لإظهار كمال العناية بالفعل»[4]. وقال السمين الحلبي: «قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ هذا التفات من الغيبة إلى التكلم، وإنّما كان ذلك؛ لأنّ المنّة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء»[5].

ج- الالتفات من ضمير الخطاب إلى الغيبة:

ومن روائع وشواهد هذا النوع من أنواع الالتفات في النظم الحكيم ما نراه في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[6]، قال السمين الحلبي: «وقوله: ﴿بِهِم﴾ فيه التفات

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٢) الدر المصون: ١/١٥٢.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٧.

(٤) أولى ما قيل: ٧/١٤٧؛ وينظر: إرشاد العقل السليم: ٧/١٥٠.

(٥) الدر المصون: ٩/٢٢٦.

(٦) سورة يونس، من الآية: ٢٢.

من الخطاب إلى الغيبة»[1] فبيّن نوع الالتفات من دون ذكر غرضه، ولكنه نقل آراء العلماء، فنقل رأي الزمخشري قائلاً: «قال الزمخشري: فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة كأنّه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح»[2].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3]، فجرى الكلام في أول هذه الآيات على ضمير المخاطب، ثم انتقل إلى ضمير الغيبة، فقال: ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم ﴾. قال السيوطي: «والأصل (عليكم)، ثم قال: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فكرر الالتفات»[4].

وقد يأتي الالتفات لأغراض بلاغية متعددة منها: لغرض التعجب كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾[5]، قال رشيد: «... ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة لتعجيب السامعين من أمرهم حيث إنّهم لا يدركون الحق ولا يعتبرون بالحكم، ولا

---

(١) الدر المصون: ١٧/٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٧/٤؛ وينظر: الكشاف: ٣٢٣/٢.

(٣) سورة الزخرف، الآيات: ٦٨-٧١.

(٤) الإتقان: ٢٥٥/٣.

(٥) سورة النحل، الآية: ٧٢.

يراعون النعم فقال: «أفبالباطل يؤمنون» وهو الإشراك بالله»[1].

وقد يأتي الالتفات لغرض الإبعاد والتحقير مع التجهيل، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[2]، قال الشيخ رشيد: «وقد أقام مقام الجواب هذه الجملة المصدرة بالإنكار التهديدي ملتفتاً من الخطاب إلى الغيبة للإبعاد والتحقير مع التجهيل فقال: «ماذا يستعجل منه المجرمون»[3].

وقد يكون لغرض المبالغة في الترهيب نحو قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[4]، قال الشيخ رشيد: «وعدل عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾، للمبالغة في الترهيب»[5].

وذكر الزمخشري الالتفات في الآية لكنه لم يُبيّن غرضه[6].

وقد يكون الالتفات الأكثر من غرض بلاغي، نحو قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾[7]، قال رشيد: «ثم لفت الكلام إلى التوبيخ والإنكار لعدد من مضان التهم مضطربة في مسالك البطلان...[8] وعدل

---

(١) أولى ما قيل: ٥/١٤٠؛ وينظر: إرشاد العقل السليم: ٥/١٢٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٠.

(٣) أولى ما قيل: ٤/٢٠١-٢٠٢.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦٧-٦٨.

(٥) أولى ما قيل: ٦/١٩٨-١٩٩.

(٦) ينظر: الكشاف: ٣/٢٢٢.

(٧) سورة المؤمنون، الآية: ٦٧.

(٨) أولى ما قيل: ٧/١٤٧؛ وينظر: إرشاد العقل السليم: ٧/١٥٠.

الخطاب إلى الغيبة، مبالغة في ذلك، كأنّه أبعدهم عن ساحة الخطاب لقلة فهمهم فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾[1].

د- الالتفات من ضمير الغيبة إلى الخطاب:

يأتي الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في كثير من آيات النظم الحكيم كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2]، قال السمين الحلبي: «وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، إذ لو جرى الكلام على أصله لقيل: الحمد لله، ثم قيل: إياه نعبد، والالتفات: نوع من البلاغة»[3]. وقال ابن جزي: «ذكر الله تعالى في أول السورة على طريق الغيبة ثم على الخطاب في إياك نعبد وما بعده وذلك يسمى الالتفات وفيه إشارة إلى أنّ العبد إذا ذكر الله تقرب منه»[4].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾[5]، والأصل أن يؤتى بضمير الغائب، فيقال جاءوا، ليتفق مع ما قبله، ولكن الأسلوب القرآني عدل عن ذلك مؤثراً الالتفات إلى ضمير المخاطب؛ لأنّ السياق يتحدث عن هؤلاء القوم الذين افتروا على الله افتراءً عظيماً، فادعوا قولاً تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتهد الجبال، وهو اتخاذه ولداً،

---

(١) أولى ما قيل: ١٥٩/٦.

(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٣) الدر المصون: ٧٥/١.

(٤) التسهيل: ٦٤/١.

(٥) سورة مريم، الآية: ٨٨-٩٠.

فجاء الخطاب؛ توبيخاً لهم على هذا القول؛ لأنّ توبيخ الحاضر -كما ذكر ابن الهيثم- أبلغ في الإهانة[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾[2]، جاء بضمير الغيبة الدال على الرسول ﷺ في ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ثم عدل عنه إلى ضمير الخطاب في ﴿يُدۡرِيكَ﴾ قال ابن يعقوب المغربي: «فالتعبير بالخطاب المناسب للمقام بالأصالة التفات؛ لأنّه مخالف لظاهر سوق الكلام وذلك ظاهر، والسر في العدول عن الخطاب إلى الغيبة أولاً تعظيم النبي ﷺ لما فيه من التلطّف في مقام العتاب بالعدول عن المواجهة في الخطاب»[3].

وقد يكون الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لعده أغراض منها: لغرض التهديد نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4]، قال الشيخ رشيد: «ثم التفت من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التهديد...»[5].

وقد يأتي أيضاً لغرض المبالغة في الترهيب كقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾[6]. قال الشيخ

---

(١) الفوائد المشوق: ١٠٨.

(٢) سورة عبس، الآية: ١-٣.

(٣) مواهب الفتاح: ١/٤٦٦-٤٦٧.

(٤) سورة التوبة، من الآية: ٣.

(٥) أولى ما قيل: ٤/١٢٠.

(٦) سورة النحل، الآية: ٥٦.

رشيد: «والالتفات إلى الخطاب للمبالغة في الترهيب»[1].

وقد يكون له أكثر من غرض كقوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2] قال الشيخ رشيد: «... ثم عدل عن الغيبة إلى الخطاب زيادة في التقرير ومبالغة في التهديد فقال: (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر)»[3].

وقد يأتي لغرض الإباحة كما ذهب إليه الآلوسي قائلاً: «... وهو الالتفات من الغيبة إلى الخطاب والمقصود الإباحة والإعلام بحصول الأمان من القتل والقتال»[4].

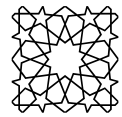

(١) أولى ما قيل: ١٣٥/٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢.

(٣) أولى ما قيل: ١١٩/٤.

(٤) روح المعاني: ٤٣/١٠.